

الحياة مسيرة أمل وعمل



كثيرون أُولئك الذين تلتقي بهم وتتحدث إليهم في قضية العمل في سبيل الله، في مختلف مجالاته، فلا تلمح بينهم إلا المتشائم الذي يرى عدم الجدوى في كل ما نعمل من أعمال، وما نقوم به من مشاريع، ويرثي - في الوقت نفسه - لهؤلاء الذين يُجهدون أنفسهم ويُفنون أعمارهم في سبيل قضية خاسرة وهدف خيالي. فإذا استطلعت حديثه، وحاولت أن تعرف دوافع هذا التشاؤم وبواعث هذا القلق، فإنّه سيبدأ معك قصة طويلة، يُحدثك فيها عن تجاربه في ميدان العمل، وكيف تعاون مع فلان فخان الفكرة، وعمل مع آخر فحوّل الفكرة إلى خدمة أمجاده الشخصية، لترفع من قدره، وتُعلي من شأنه، ومدّ يده إلى ثالث فلم يجد إلا اللتواء والانحراف عن الهدف المقصود إلى أهداف لا تلتقي بالفكرة من قريب أو بعيد إن لم تباينها.. وهكذا تتعدّد التجارب، ويتكرّر الفشل وتتنوّع ألوانه، حتى تصبح القضية عقدة في ضمير صاحبها؛ وينتهي به الأمر إلى أن يتجمّد ويستسلم لأعماله الخاصة، بعد أن يكون قد اقتنع - في سلامة ضمير وراحة وجدان - بأنّ التكليف قد سقط، وأنّ الدّمة قد بُرّئت، فلا حساب ولا مسؤولية، من جانب الله، أو من جانب البشر. وإذا فعلام التعب والإلامّ الجهد مادامت النتيجة لا تبشّر بخير؟

وهكذا تصبح التجربة مصدر جمودٍ ويأسٍ، بعد أن كان المفترض فيها أن تعود منطلق حركةٍ وبداية طريقٍ وإشراقة أملٍ. وبدأ إخفاق التجربة عند هؤلاء وفشلها في حياتهم، يتحوّل إلى حجّة على العاملين في سبيل الله، أو الذين لا يزالون يعملون؛ لأنّهم لم يصطدموا بالتجربة، ولم يعانون مرارة الفشل، وأصبحت من بين المبرّرات التي يبرّر بها المتخادلون تخاذلهم وتراجعهم، ويتّخذونها أداةً لإثارة الروح الانهزامية اليائسة في كيان العاملين عندما يحاولون السّير في طريق الجهاد.

ولكن.. هل هذا صحيح؟

هل نفهم من هذا، أنّ إخفاق التجربة دليل فشل الفكرة، وأنّ تعثّر الخُطى في بداية الطريق يوحى بعدم القدرة على مواصلة السّير من جديد؟ وهل يريد هؤلاء منّا أن نقف ونتجمّد عند أوّل تجربةٍ، ونياأس عند أوّل بادرةٍ للفشل؟

تلك هي بعض علامات الاستفهام التي يثيرها موقف هؤلاء الناس، ولا تزال تبحث عن جواب. وما ندري، أن نكون مجانبين للحقيقة إذا قلنا: إنّ ما نخشاه من هؤلاء الذين يفكّرون هذا التفكير، ويحاولون أن يُقنعوا الناس بصواب هذه الفكرة، هو أن لا يكونوا – هم أنفُسهم – مقتنعين بها من ناحية المبدأ، ولكنّهم يبحثون فيها عن المبرّر للتقاعس وحبّ الراحة والسلامة.

والسّلا، فما معنى أن يكون إخفاق تجربةٍ ما، في زمانٍ معيّنٍ، ومكانٍ معيّنٍ، وظروفٍ خاصّةٍ، حجّةً على إخفاق بقيّة التجارب التي يمكن للإنسان أن يستقبلها في المدى الطويل، مع اختلاف الزمان والمكان والظروف؟!

هل نفهم من هذا، أنّهم لا يحسبون لهذه الأُمور حساباً، ولا يعتبرون عنصر الزمن في حساب التطوّرات، وإنّما يقيسون الحاضر بالماضي، والمستقبل بالحاضر.. وهكذا يحصرون الزمن في دائرةٍ معيّنةٍ، لا تقبل التطوّر والتجديد والتغيير؟

وبعد هذا.. لا نريد أن نهيم في متاهات النظريات، لنردّ على هذه النظرة أو لنناقشها الحساب، بل نريد الاتجاه نحو الواقع، في محاولة استنطاقٍ لقصّة التجربة في ميدان التقدّس الحضاري للإنسان.

أمّا قصّة التجربة في ميدان العلم، فهي قصّة الفكرة التي تتلقّى الفشل تلو الفشل، فلا تقف ولا تتراجع، بل تظلّ صامدةً في معركة البحث لتُجرّب وتُجرّب، حتى تنطلق النظرية، عن طريق الصُّدفة

